الجزء ٥ المجلد ٨

مجلة المجمع العلمي العربي

(دمشق) : ايار سنة ١٩٢٨ م الموافق وذي القعدة وذي الحجة سنة ١٣٤٦ هـ

حياة الالفاظ(١)

اذا طرحتك النوى مطارحها ، فكتب لك ان تزور باريز استطعت ان تذوق حلاوة الدنيا ، وتشعر بنضارة الحياة ، ومن محاسن باريز الفتيات العاملات اللواتي ينصرفن في الصباح الى العمل ، انصراف النحل الى اجتناء الزهر ، ثم يفرغن من عملهن ، فيلهون ولا لهو العنادل على ملتف الاغصان ، أطلق الفرنسيون على هذه الفتيات اسم (Midinettes) فالاسم مشتق من كلمة (Midi) ومعناها الظهيرة ، لانهن يفلتن في الظهيرة كما تفلت الطير من الاقفاص ، فيخرجن من المخازن والمعامل ، فيسرحن كما يسرح سرب المها ، فاذا سمعت احاديثهن على الطريق فكأنك قد سمعت دوي النحل ، فتراهن ذاهبات من الاوبرا الى ساحة الفاندوم ، ومن المادلين الى الشان — اليزه ، وترى الشوارع والمطاعم والمقاهي والملاهي مكتظة بهن ، فاذا رأيتهن رأيت الألوان على مختلفها ، وعرفت كيف تكون الابتسامات على الثغور ، وكيف تكون التخيلات في الخواطر ، شعر قصير ، وشباب ناعم ، وقامة رشيقة ، وخلقة فتانة ، فهن نضارة باريز وغضارتها ، ولولاهن لما كان لباريز رونق وبهجة فكلمة (Midinette) العذبة ترد بطبيعتها على شق القلم وطرف اللسان ، أدمجها كبار الكتاب في رواياتهم ، فتأصلت في اللغة الا انها عرضت يوم الخميس الماضي على قاعة باريز الفتانة ، اي على

(١) محاضرة الاستاذ السيد شفيق جبري القاها في ردهة المجمع العلمي في ١٧ شباط سنة ١٩٢٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الاكادمية الفرنسية وليدة ريشوليو ، وكان لها امل ان تحتفي الاكادمية بها لعذوبتها ونعومة صباها ، ولكن الاكادمية لم تمهد لها سبيلاً في معجمها فقطبت في وجهها واطرحتها .

هذه خلاصة ما قرأته في مقال وقع عليه النظر في جريدة الطان في ٢٩ آذار المنصرم وقد أسف صاحب المقال الاسف كله على اطراح هذه الكلمة ، مبيناً انه ليس من شأن الاكادمية قلب الألفاظ المصطلح عليها واحتقارها وانما مهمتها المحافظة على المصطلحات الكثيرة الدلالة وقد أضاف الكاتب الى كلامه ان من الواجب الاقتداء بالرب ومولبير في المسامحة والاستئناس بالمصطلحات المستفيضة في طبقات الشعب ثم ختم مقاله بما يلي :

« اللغة التي لا يزيد غناها قليلاً في كل يوم تفقر وتنضب ، وقد كان كتابنا في عصر التجدد لا يجهلون ذلك فكانوا يفتشون عن أسلوب فيه حياة وخفة وله طعم ولون و يقتبسون استعاراتهم عن مصطلحات الصيادين ، وعن كلام امراء البحر وتعابير اصحاب المطابع ، فكانوا يجدون انه من الضروري ان ينشأ على الجذع اللغوي القديم طعم على شرط ان يكون هذا الطعم سهلاً ، دالاً على شيء قد آده الاصطلاح ، فلم لا نحو نحوهم » .

مالنا ولفتيات باريز ، فالمقصد من هذه المقدمة الموجزة كلمة الكاتب التي أشرت اليها وهذه هي « اللغة التي لا يزيد غناها قليلاً في كل يوم تفقر وتنضب » .

* * *

هل يتيسر لي قبل ان أخوض في موضوع من اجل الموضوعات اللغوية ، هل يتيسر لي قبل ان أبين كيف تغنى اللغة وكيف تفقر ، ان أذكر شيئاً من نشوء اللغة واصلها وماهو مذهب المحافظين على أوضاعها ، والمجددين لأسالبيها وماهي علل المحافظة و التجديد واي سبيل ينبغي لنا ان نسلكه في عاملين يتنازعان اللغة . عامل المحافظة وعامل التجديد ، اذا تهيأ لي ان أذكر شيئاً من ذلك كله في محاضرتي هذه استطعت في محاضرة أخرى ان أوضح على قدر الإمكان كيف تولد الألفاظ ، وكيف تحيا ، وكيف تموت .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يقول عنترة في معلقته :

(هل غادر الشعراء من متردم)

و يقول امرؤ القيس :

(عوجا على الطل القديم لعلنا نبكي الديار كما بكى ابن حزام)

و يقول زهير :

(ما ارانا نقول الا معارا او معادا من قولنا مكرورا)

فالذي يستنبط من كلام عنترة وامرئ القيس وزهير انه جاء قبلهم شعراء جالوا في الشعر كل مجال ، وحلقوا في سمائه كل محلق ، وقد انقطعت عنا اخبار الذين أورثوا عنترة وامرأ القيس وزهيراً وأمثالهم نتائج الخواطر وثمرات القرائح ، وانطوت آثارهم فلا نعرف عنهم شيئاً ، فلغة العرب منقادمة العهد فلا يمكن ان نتشأ دفعة واحدة على الصورة التي نشأت عليها في العصر الجاهلي المعروف ، فلا ريب في انها قد سبقتها أحقاب مديدة انتقلت فيها اللغة من طور الى طور وتدرجت الى الكمال حتى وصلت الى ما وصلت اليه ، فالعصور التي تنقلت اللغة في خلالها من مرتبة الى مرتبة غامضة مبهمة فهي سر من الأسرار وهذه ثلمة في تاريخ ادب العرب لاننا لا نعرف كيف تدرجت اللغة العربية تدرجها الطبيعي ، ولا بد في الاحاطة بذلك من الرجوع الى اللغات السامية والتنقيب عن الكتابات القديمة ، على ان لغة العرب لم تنته الينا بحذافيرها فان الذي جاءنا عن العرب قليل من كثير و كثير من الكلام ذهب بذهاب اهله ، قال ابن فارس : « ذهب علماؤنا او اكثرهم الى ان الذي انتهى الينا من كلام العرب هو الأقل ولو جاءنا جميع ماقالوه لجاءنا شعر كثير وكلام كثير » .

فالذين يظنون ان لغة العرب قد تكاملت فجأة يخالفون في ظنهم اصول العلم الحديث قال رنان (Renan) :

« من أغرب ما وقع في تاريخ البشر وصعب اظهار سره انتشار اللغة العربية فقد كانت هذه اللغة بادئ بدء غير معروفة ، فبدت فجأة غاية في الكمال سلسلة غنية واي غنى ، كاملة حتى انها من ذلك العهد الى يومنا هذا لم تعدل اقل تعديل ذي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شـأن ، فليس لها طفولة ولا شيخوخة ، ظهرت لاول امرها تامة ولا أدري اذا وقع مثل ذلك للغة من لغات الارض دون ان تدخل في أطوار مختلفة .

فقول رنان هذا مخالف لقواعد العلم ، لا شيء يكمل فجأة على وجه الارض ، مثل اللغات كمثل المخلوقات الحية في عالمي الحيوان والنبات ، فكما ان الحيوانات والنباتات تولد فتعيش فتموت ، فكذلك اللغات فانها أشبه شيء بهذه المخلوقات .

ما هو اصل اللغة ، وهل هي توقيف ووحي او اصطلاح وتواطؤ ، وما هو رأي العلماء في ذلك ؟ .

قال الاستاذ (دارمستتر — Darmesteter) في كتابه « حياة الألفاظ الذي سأشير اليه في هذه المحاضرة :

« ما هو اصل اللغـة ، لم تخرج هذه المسألة الدقيقة عن حد الفرض ، فالعلماء لا يزالون يحدسون فيها و يخمنون ، فقولهم فيها من باب حدس الظن ، فالعلم لا يزال في هذا الموضوع فطيراً ، حتى انك لاتجد في اللغات التي انتقلت الينا آثارها القديمة ، (اللغات المصرية والسامية والهندية — الاوربية) الا صيغاً حديثـة وراءها ماض مديد ، جرت فيه تطورات شتى لايصل تحقيق المحققين مهما أمعنوا فيها الا الى مصادر مشتقة من مصادر اولية ضاعت آثارها ، فاللغـة البشرية وحدها لا تمهد سبيلاً الى معرفة اصلها فلا بد من تجاوز أفقها حتى نصل الى معرفة الاصل وربما أدت المقابلة بين لغة البشر ولغة الانواع الحيوانية الى نتائج حديثة في مبحث لا يزال من مباحث ما وراء الطبيعة » .

وقال ابو الحسين احمد بن فارس في فقه اللغة وكان من اهل السنة : ان لغة العرب توقيف ودليل ذلك قوله تعـالى : « وعلّم آدم الاسماء كلهـا » وقد ذهب هذا المذهب الكاتب الفيلسوف الفرنسي بونالد (Bonald) فهو يرى ان الرجل يعجز عن انشاء لغة له فأوحى الله اليه لغة تامة كاملة وايد مذهبه بهذه الحجج :

(١) لا يستطيع الرجل ان يفكر من دون الكلام .

(٢) اللغات القديمة هي اكمل اللغات .

(٣) اللغات كلها مشتقة من لغة اولية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بيد ان هذه الآراء قد نقضها العلم الحديث .

وقال ابن جني في الخصائص وهو من المعتزلة :

ان اكثر اهل النظر على ان اصل اللغة انما هو تواضع واصطلاح ، وذلك بان يجتمع حكيمان او ثلاثة فصاعداً فيحتاجوا الى الابانة عن الاشياء المعلومات ، فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظاً اذا ذكر عرف به مسماه ليمتاز عن غيره ، وهذا هو رأي الفيلسوف اليوناني ديموقريطس (Démocrite) فهو يقول بان اصل اللغة انما هو اصطلاح وتواطؤ فقد اخترع اللغة رجل ماهر ثم تواطأ الناس بعده على قبولها ، ولكن هذا المذهب لا أنصار له اليوم .

اما علماء التحوّل فانهم يرون ان اللغة انما هي نتيجة تطور القوى الحيوانية .

وقد نسب كل من الفيلسوف ريد (Reid) والفيلسوف جوفروا (Jouffroy) اللفظ الى غريزة خاصة .

والمستشرق الانكليزي موللر (Müller) يقول بان البشرية كان لها في الاصل قوة تمكنها من انشاء المصادر ، ثم اضمحلت هذه القوة على الايام .

ويرى رنان (Renan) ان من طبيعة الرجل الكلام كما ان من طبيعته التفكير .

يعتقد معظم علماء النفس في هذا العصر ان الكلام انما هو نتيجة عمل بطيء تكامل على التدريج ، وهم يجعلون للغة اصلاً طبيعياً ، والظاهر ان تقدم علماء اللغات يؤيد هذا المذهب فقد كانت اللغات القديمة على مايقولون غير كاملة ثم تكاملت شيئاً فشيئاً بنمو قوى الرجل الطبيعية ، وفي استطاعتنا ان نقول ان الرجل قد وهبت له الطبيعة عضواً مرناً ، واذناً دقيقة ، وعقلاً قادراً على التجريد والتعميم ، فاستطاع ان يخترع اللغة ، بدأ قبل كل شيء بالغة الطبيعية ثم استعمل حكاية الاصوات وأدوات التعجب والتأوه ثم تمكن بفضل التجريد والتعميم من استعمال الاشارات ، وقد أشار السيوطي الى شيء من هذا المذهب اشارة خفية فقال :

« وذهب بعضهم الى ان اصل اللغات كلها انما هو من الأصوات المسموعات كدوي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الريح ، وحنين الرعد ، وخرير الماء ، وشحيج الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزيب الظبي . ونحو ذلك ثم ولّدت اللغات عن ذلك فيما بعد » .

وقد بين أكيا الهراسي في تعليقه في اصول الفقه الحكمة الداعية الى وضع اللغة فقال : ان الانسان لما لم يكن مكتفياً بنفسه في معاشه ومقيمات معاشه لم يكن له بد من ان يسترفد المعاون من غيره ولهذا اتخذ الناس المدن ليجتمعوا ويتعاونوا ، وقيل : ان الانسان هو المتمدن بالطبع والتوحش دأب السباع ولهذا المعنى توزعت الصناعات وانقسمت الحرف على الخلق ، فكل واحد قصر وقته على حرفة يشتغل بها ، لان كل واحد من الخلق لا يمكنه ان يقوم بجملة مقاصده ، فحينئذ لا يخلو من ان تكون حاجته حاضرة عنده ، او غائبة بعيدة عنه ، فان كانت حاضرة بين يديه أمكنه الاشارة اليها . وان كانت غائبة فلا بد له من ان يدل على محل حاجاته ، وعلى مقصوده وغرضه ، فوضعوا الكلام دلالة ووجدوا اللسان أسرع الاعضاء حركة وقبولاً للترداد ، وهذا الكلام انما هو حرف وصوت .

هذا اليسير من آراء العلماء في اصل اللغة ولعل البحث عن لغة الطفل أهون امراً ، يألم الطفل وهو يعلم انه اذا صاح وصرخ حمل اهله وعطفوا عليه فيصيح ويصرخ ليحملوه فهذا مبدأ اللغة ، ثم يشعر بحاجته الى الافصاح عما يشعر به ، فيلجأ قبل كل شيء الى اللغة الطبيعية . الاشارات والاصوات ، فاذا أراد الدلالة على الحاجات الحاضرة أشار اليها ، واذا أراد الابانة عن الحاجات الغائبة قلّد أصواتها . وهذه هي حكاية الصوت ثم يردد أداة التعجب التي يفصح بها عن هائجة من هوائجه ، اومائجة من موائجه ، وعلى هذا يشتق الكلام شيئاً فشيئاً من الصوت غير الملفوظ ثم يدرك الطفل ان بين الحاجات مناسبات شتى في تلاصقها وتشابهها فيطبق الألفاظ المخترعة على حاجات حديثة ، وأضف الى هذا كله التعليم . فعلى هذا الوجه تنشأ لغة الأطفال .

اما وقد بينت على سبيل الايجاز أصل اللغات وأشرت الى اليسير من آراء العلماء في نشوء اللغة . فلنبحث عن مذهب المحافظين والمجددين في اللغة ، وما هي عوامل المحافظة والتجديد .

اقتنيت من زمن قريب كتاباً اسمه (حياة الالفاظ) وضعه دارمستتر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(Darmesteter) استاذ الادب الفرنسي في القرون الوسطى ، ومدرّس تاريخ اللغة الفرنسية في معهد الآداب في باريز ، يشتمل هذا المؤلف الجليل على خمسة دروس قررها (Darmesteter) في السوربون في أواخر سنة ١٨٨٥ بحث فيها عن خصائص الحياة التي تجعلها أذهاننا الالفاظ في الافصاح عن المعاني ، فهو مبحث فلسفي عن الطرائق المنطقية والعلل الروحية واللغوية التي ينطوي عليها تطور المعاني ، الا ان الكاتب لم يتعرض في كتابه الا للغة الفرنسية دون غيرها من اللغات ، وكأن مقصده تحريك العقول للتطلع وترغيب قومه في التعمق في درس لغتهم وتتبع نموها ، والاحاطة بعبقريتها ، لقد قرأت هذا المؤلف فأبقى في نفسي اثراً بليغاً ، فأحببت ان انقل شيئاً من هذا الاثر الى غيري مجتزئاً بالاجمال دون التفصيل ، ومكتفياً بالايجاز من غير تطويل .

* * *

اتى على العلماء حين من الدهر كانوا في خلاله يدرسون اللغة اليونانية واللغة اللاتينية باعتبارهما لغتين ميتتين ، فكانوا يتعلمونهما حتى تنفذ مداركهم الى الآيات البينات التي تشتمل عليها هاتان اللغتان ، كانوا يتعلمونهما حتى يتأملوا هذه الآيات ويتدربوا على فن الكتابة الصعب بتقليدهم صوراً من الانشاء منقطعة النظير فكانوا يمعنون في اظهار أسرار المخطوطات ويبحثون في مبانيها النادرة حتى يتكامل فهمهم للغة النسخ الاصلية .

ولما اكتشف (السانسكريت) نشأ علم اللغات فتفرغ العلماء لدرس اللغات درساً مجرداً ، وأصبح تاريخ اللغات غاية يسعى اليها المنقبون فلم يعد اللغوي يقتصر على درس لغات شيشرون ، وفيرجيل ، وسوفوكل ، وديموستن الجميلة فانه جاوز هذه اللغات الى درس اللغة اللاتينية القديمة واللاتينية في عهد الانقراض واللهجات الايطالية المشوّهة ، ويونانية هوميروس ، واليونانية البيزانطية ، واللغات العامية المنتشرة في بلاد اليونان ، فأصبح العلماء يهتمون بدرس اللغات على مختلفها من أرقاها الى أدناها فيملقون عليها ويمعنون في دراستها ، وهم الآن يتتبعون التحقيق حتى يضعوا فهرساً كاملاً يشتمل على كل اللغات التي يتكلم بها البشر اليوم في جميع الارض ، و يعنون بتحديد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اصولها وتبيين نموها وايضاح الصيغ التي تعاقبت على الفاظها ومفرداتها وصرفها ونحوها ويجدّون على قدر الامكان في ان يكتشفوا من وراء تاريخها تاريخ الحضارات .

لا تزال اللغات تنتقل من طور الى طور وتتدرج من أُفق الى أُفق على تعاقب السنين ، واذا استعرضتها في اي عصر من عصورها وجدتها يتنازعها حزبان من أبنائها : حزب يحاول ابقاءها على حالتها ، وحزب يذهب بها مذهباً جديداً .

فالطائفة التي تحرص على ابقاء اللغة في حالة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل تحتج بحجج شتى ، منها تعلقها بمذاهب حضارتها وحرصها على تقاليدها ، واعتناؤها بتلفظ اولادها ورغبتها الغريزية في ان يكون لها لغة مصطفاة ثم اذا تعمقت في الأسباب التي من أجلها يحافظ المحافظون على لغتهم وجدت لكتب الدين تأثيراً عظيماً كالتوراة والقرآن ، واذا جاوزت هذا الأُفق الى أُفق أعلى تجلت لك شدة استمساك المحافظين بلغتهم بسبب الكتب الأدبية التي أولعوا بها لجمالها وحسنها فهذه هي أعظم الاسباب التي تدفع المحافظين الى التمسك بمحافظتهم ، فهم يريدون صفاء اللغة وقد تجمع هذه الاسباب كلة واحدة وهي « ثقافة الفكر » .

والحزب الآخر اسبق الحزب الذي يذهب باللغة مذهباً جديداً فانه يتوسل الى ذلك بثلاث وسائل : اما بقلب اللفظ واما بقلب الصرف والنحو واما بقلب المفردات .

(١) الخروج على وحدة اللغة بطريق التلفظ .

تغيير التلفظ منشؤه الطفل ، فالطفل بسبب اعضائه الصوتية الدقيقة يفسد الكلمات التي لا يسهل عليه لفظها ، وفي الاغلب فان اهله واساتذته يصلحون خلل لفظه وفي بعض الأحايين فهو الذي يتولى اصلاح هذا الخطأ ولكنه في الاكثر اذا كبر هذا الطفل وترعرع فانه يحتفظ بمعايب اللفظ التي وقع فيها في حداثة سنه فيبلغ سن الرجولية ولفظه مشوّه ، فيمتد هذا الفساد من الفرد الى الأُسرة المعاصرين او القرية او المقاطعة فيتمكن هذا الفساد في اللغة و يعم امره فيحدث حينئذ حادثان : اما ان يمتد تغيير اللفظ الى البيئة التي نشأ فيها فيمتد الى القرية والى جماعة من الناس تربطهم روابط الحياة وفي هذه الحال فان الفساد اللفظي تدرج عليه الجماعة من دون شعور والناس الذين نسوا اللفظ الاول يستعملون اللفظ الثاني المشوه ، واما ان لا يعم امر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

التغيير اللفظي الا في قسم من الجماعة و يرفضه القسم الآخر فيحدث حينئذ اختلاف اللهجات وقد حدث هذا الاختلاف في لغات العرب . قال الفراء « كانت العرب تحضر الموسم في كل عام وتحج البيت في الجاهلية ، وقريش يسمعون لغات العرب فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به فصاروا أفصح العرب ، وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ ، من ذلك الكشكشة وهي في ربيعة ومضر والكسكسة والعنعنة وهي في كثير من العرب في لغة قيس وتميم ، ومن ذلك القحفحة في لغة هذيل ، والوكم في لغة ربيعة ، والوهم في لغة كلب ، والعجعجة في لغة قضاعة ، والاستنطا في لغة سعد بن بكر وهذيل والأزد وقيس ، والوتم في لغة اليمن ، والشنشنة ايضاً . ومن العرب من يجعل الكاف جيماً كالجعبة يريد (الكعبة) ومن ذلك الخزم ، وذكر الثعالبي في فقه اللغة « من ذلك الخلخانية تعرض في لغة أعراب الشحر وعمان والطمطمانية تعرض في لغة حمير الى غير ذلك من مختلف لغات العرب ولهجاتها ومن أراد الاستزادة فليرجع الى المزهر .

قلنا ان الخروج على اللغة يكون بالتلفظ ويكون ايضاً بتغيير النحو والصرف وهذا السبب هو أبلغ اثراً لانه يتناول لب اللغة اي النحو والصرف ، وانك لتشاهد في هذا الحادث قوة جديدة بسيكولوجية تنازعها قوة أخرى فيسيولوجية اي قوة التشويه الصوتي وهذا التنازع يوضح لك ان في كل لغة خاصيتين طبيعية ومعنوية فان اللغة باعتبارها أصواتاً تتعلق بالعالم الطبيعي ، و باعتبارها الفاظاً مفصحة عن الفكر تتعلق بالعالم المعنوي .

انك لتصادف مثلاً في اللغة صيغة من الصيغ النحوية او كلمات أواخرها متشابهة واحدة فتأتي بالقياس فتطبق هذه الصيغة على سلسلة من الكلمات فتنزع عن هذه صيغها وأواخرها الخاصة وتفرغها كلها في قالب واحد فتحدث صيغة واحدة بدلاً من صيغ مختلفة فمرة يحصر القياس في نمط واحد الصيغ الكثيرة فيوحد بهذا العمل قواعد النحو والصرف فالصيغة النحوية التي تكون لطائفة كبيرة من الكلمات المتشابهة يعم امرها و يطلق سلطانها فتذهب بالشذوذ وتقضي عليها .

ومرة يخلق القياس صيغاً جديدة فتستخدم اللغة القياس لاظهار صيغ حديثة فاذا كان مدار الامر على إنشاء صيغة حديثة في النحو والتركيب فان اللغة تسلب كلمة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

او كلمات خصائص لا توجد الا في هذه الكلمة او الكلمات وتطبقها على مجموع من الكلمات من طبيعة واحدة وأضف الى هذه العوامل كلها عامل الدخيل . فان الامة تكتسب كل يوم اموراً وأفكاراً حديثة وانماطاً في الفهم والحس جديدة ، فلا بد من ايجاد اسماء جديدة لمسميات جديدة وهذه الاسماء تؤدي في الأغلب الى انقراض كلمات قديمة لان الافكار الحديثة والألفاظ الدالة عليها تعفي على آثار الألفاظ القديمة .

فاذا عمل حزب من الحزبين على حدة وأعرض عن الحزب الآخر فماذا يحدث ؟ اذا انحصرت اللغة في مركز واحد بطلت حركتها وهلكت ولا ريب في ان الشعوب التي ليس لحضارتها تبديل تستطيع ان تحفظ لغتها على وجه الدهر من دون ان يمس هذه اللغة شيء فاذا كان الفكر ثابتاً لا يتغير فاللفظ الذي يدل على هذا الفكر يثبت ولا يتغير ، ولكن اذا بلغ الحرص على التقاليد مبلغاً يمنع اللغة عن تتبع مذاهب الافكار والمعاني واستحكم التناقض بين أفكار الامة وبين القوالب التي تفرغ فيها هذه الافكار ، نفدت مادة اللغة فكلّت وهلكت واليك مثلاً شهيراً في اللغة اللاتينية المدرسية اي لغة الكتّاب الرومانيين والطبقات العالية فان هذه اللغة امتنعت عن تتبع اللغة العامية في نموّها وتشددت في المحافظة على أسلوب مقدس وفي آخر الامبراطورية هلكت هذه اللغة وتركت المجال للّغة العامية الحية القوية التي انبعثت من آفاقها لغات شتى ولهجات مختلفة مستعدة للاستيلاء على الميراث الذي خلفته اللغة الفصحى .

واذا عمل الحزب الذي يذهب باللغة مذهباً جديداً على حدة دون الاستعانة بمذهب المحافظين فان اللغة تقذف مقاذف مختلفة فتتحول سريعاً فمرة تتعاقب عليها عدة بطون فتصل الى حالة مختلفة كثيراً عن الحالة السالفة حتى تكاد تكون لغة جديدة وأحياناً تتشعب الى طائفة من اللغات وهذه اللغات تتشعب ايضاً الى ما لا حدّ له ، فقد قيل ان في جملة اللغات المتوحشة بطناً من الناس يشهد لهات تولد ثم تموت لتولد على شكل آخر الا ان هذا التغير المستمر قد جاوز الحد حتى أصبح مخالفاً لغرض اللغة وغايتها وأضاع على اللغة قسماً من فائدتها ومنفعتها طالما انك سمعت ان في بعض لغات المتوحشين التي ألمعت عليها لا يفهم الشيوخ معاني كلام الأحداث فان في هذا الامر شيئاً غير طبيعي يشبه في علم اللغات عجائب المخلوقات في علم التاريخ الطبيعي . ثم ما هو السبب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الاول في هذا التطور الذي لا نهاية له ان هو الا جهل المتوحشين الذين يتكلمون بهذه اللغات وضعف عقولهم لان اللغة تتأيد بالحضارة .

يقولون الآثار الادبية تفسد خصائص اللغات الطبيعية ، ولكنك اذا قبلت هذه الآراء فانك ان تقدم الحضارة التي تنشأ عنها آداب اللغة وأساليبها الفنية انما هو حركة طبيعيـة لها أسباب مثل أسباب سائر مظاهر أعمال البشر كالفن والدين والاخلاق والمعاهد الاجتماعية والسياسية الخ ....

يقولون ان العوامل التي تعمل في نمو لغات المتوحشين ولهجاتهم هي أبسط فيسهل تعيينها ، ولكن العوامل التي تعمل العمل نفسه في اللغات الأدبية وان كانت مركبة فانها طبيعية ايضاً ومتى كان تركيب الحوادث علة للحط من العلم الذي ينظر في هذه الحوادث فقد استعار علماء بعض الشعوب العصرية طائفة من الكلمات اللاتينيـة واليونانية وأدمجوها في اللغة من دون تغيير فوآخذوا بذلك في لب مفردات اللغة الطبيعية مفردات حديثة ولكن هذه الاستعارة كانت مطابقة لعلل طبيعيـة يحددها التاريخ وقد أدى تمازج مفردات العلماء ومفردات العامة الى حوادث جديدة يظهر فيها على وجود مستحدثة نشاط اللغة الذي لا يفتر فاذا كانت اللغة آلة يستعملها الناس ليفضي بعضهم الى بعض بخواجه ولواعجه فكلما انبسط أفق الفكر بسبب الحضـارة وامتدت أفياؤه استفادت اللغة في التعبير عن المعاني الجديدة وازداد شرفها وعظمتها .

اي سبيل ينبغي لنا ان نسلكه في المحافظة والتجديد ، أفنبالغ في المحافظة مبالغة ليس فيها شيء من الروية والحكمة على حين تجد الحضارة في كل يوم تخرج من أفق ضيق الى أفق أوسع وينبسط العلم انبساطاً يستلزم استحداث مصطلحات لا عهد للغة بها وابتكار أساليب فنية تستوعب مخترعات الحضارة والعلم ام نسير في التجديد سيراً تصبح فيه اللغة كريشة في مهب الريح فتستفيض فيها الفوضى فلا يعرف لها اصل يرجع اليه ، لا ريب في ان وقوف اللغة عند حد لا تتجاوزه يفضي بها الى انقطاع مادتها ونضوب معينها وان الذهاب بها كل مذهب في التبديل والتغيير يقضي عليها على ان لغة العرب لم تجمد في عصر من عصورها اللهم الا في عصر تقلص فيه ظل العرب عن ديارهم ، فقـد كانت اللغة تنتقل من حال الى حال ، وتخرج من طور الى طور

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في جاهليتها واسلامها وفي أمويتها وعباسيتها ، فكثير مما نراه قديماً في هذا العصر كان حديثاً في عصره ، وكثير مما نجده حديثاً في هذا الزمن يصبح قديماً في غير زمننا سنة التطور في الخلق ، نظرة في تاريخ أدب العرب تطلعك على شيء من هذا التطور ، أفلم يكن امرؤ القيس مؤسس الاساس في زمنه كانوا يقولون : أسيلة الخد حتى قال امرؤ القيس : أسيلة مجرى الدمع ، وكانوا يقولون : طويلة القامة وجيداء وتامة العنق وأشباه هذا حتى قال : بعيدة مهوى القرط وكانوا يقولون في الفرس السابق : يلحق الغزال و يسبق الظلام وأمثال هذا حتى قال بمجرد قيدالاوابد هيكل ومثل هذا له كثير .

أفلم يأت الاسلام بمصطلحات لا عهد للجاهلية بها ، هل كان في الجاهلية للحج والصلاة والزكاة وأمثال ذلك المعاني التي كانت لها في الاسلام ، أفلم يأخذ كلمات كثيرة عن غير العرب .

أفلم يكن بشار بن برد اول المولدين ، أفلم يكن ابو نواس اول الناس في صرم القياس وذلك انه ترك السيرة الاولى وجعل الجد هزلاً والصعب سهلاً .

نظرة في تاريخ أدب العرب توقفك على مذاهب الألفاظ والمعاني في كل عصر من عصور اللغة فيتحقق عندك ان اللغة لم تقف في يوم من ايامها ، انها سارت في القديم وانها تسير في الحديث سيراً مطابقاً للدلل الطبيعية والاسباب الاجتماعية ، لم تقف اللغة ولا ينبغي لها ان تقف في عصر استفحل فيه العمران وانبسطت مذاهب الحضارة وامتدت أفياء العلم فلا بد من مصطلحات حديثة لمعان حديثة ، فحياة اللغة متوقفة على تتبع روح العصر بقدرمايكون من التمهل ، على ان يكون للغة صلة متينة بماضيها ومايشتمل عليه هذا الماضي من حضارة وتقاليد وآثار فنية وأدبية : لا غلوّ في المحافظة ولا غلو في التجديد ، هذه هي حياة اللغة .

قد مضى القول في اصل اللغة ومذهب المحافظين والمجددين وسأتفرغ في محاضرة ثانية اذا أمكنت مناهز الفرص للكلام عن حياة الألفاظ فأبين كيف تولد هذه الألفاظ وكيف تحيا وكيف تموت اه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net